السمّاح عبد الله

تصاوير ليلة الظمأ

الأعمال الشعرية - ١٤

السمّاح عبد الله

تَصَاوِيرُ لَيْلَةِ الظَّمَأْ

شعر

السمّاح عبد الله

إِشَارَةْ

* كتبت نصوص الديوان في الفترة من أبريل ٢٠٠٥ وحتى مارس ٢٠٠٧

* صدرت الطبعة الأولى من هذا الديوان في أغسطس ٢٠١٠ عن دار التلاقي للكتاب.

إِهْدَاءَةْ

يا بشرى:

أنت كسّرتِ قارورتين على ضفة نهر النيل.

وأنا أرخّت لضفيرتيك منذ كانتا تطوفان بحثا عن القطر الندىّ

هذه السطور ليست عنك وحدك.

بَدْءُ الْقَوْل

خلواً من الهمِّ إلا همَّ خافقةٍ
بينَ الجوانحِ أعنيها وتَعنيني
تَهزُّني فأجاريها فتدفعَني
كالريح تُعجل في دفع الطواحينِ
يا دجلة الخير يا أطياف ساحرةٍ
يا خمرَ خابيةٍ في ظلَّ عُرجونِ
يا سكتة الموت يا إعصار زوبعةٍ
يا خنجرَ الغدر يا أغصان زيتونِ
يا أم بغدادَ من ظرف ومن غنَج
مشى التبغدُدُ حتى في الدهاقينِ .

محمد مهدي الجواهري

الجزء الأول :

أَقْوَالُ الْمَرْأَةِ الْبَلِيلَةِ وَتَفَاسِيرُ أَقْوَالِهَا

أولا : اَلأقْوَالْ

أنا امرأةٌ قديمةٌ
وورقيةٌ
وشيعيةٌ
ورقَّاصةٌ
وبَلِيلةٌ
ومحفوفةٌ بدماء الأشوريين
الفراتية لقبي
والخوّافة من القاطارات صفتي

وكنيتي ذات الخلاخيل والحلقان

واسمي عياشة

وراغدة

وبشرى

والسارية

فلا تَتَّبعني يا صاحبَ الأناشيد

حتى لا تتعبَ روحي.

ثَانِيًا : تَفَاسِيرُ الأَقْوَالْ

١
أنا امرأةٌ قديمةٌ

أنا امرأةٌ قديمةٌ
لما عم الطوفانُ
تطاير البشر في كل اتجاه
يبحثون عن ملجأ أو عاصم
آوى ابنُ نوح إلى قمة الجبل
فلم يعصمه
وذووه حبسوا أنفسهم في سفينةٍ مغلقةٍ
فلم يروا الماء
ولا اليابسة

وذاتُ الضفائر المجدولة
صدَّقَتْ نبوءة رجلها الهارب
من البوابةِ المُعَرَّجةِ
إلى الكوخ المتدرّجِ
قال لها:
حين يجيء الطوفان
أغمضي عينيك
وافردي يديك على اتساعهما
وثبّتي رجليك في المكان الذي لقيتك فيه
آخر مرّة
بين العشب والسماء
وتذكري المكان الذي لقيتك فيه
أول مرّة
بين لسان البحر وعيون الطيور المهجرة

واحلمي بي
فأكلها الماء
أما أنا
فقد تعلقت في فرع شجرة
كانت المياه تعلو بي
فأتشبث بأطراف أصابعي
بالخشبة الشجرية
وأرى هيولى الفيض يدغدغ خديّ
وشَعري
وأوراقي الخفيفة
فأتذكر زحف جداتي عاريات
إلى السواحل الخرافية
وتهبط المياهُ بي
فأعلو الخشبة بفخذي المبللتين

وأرى هروب السمك
من الماء إلى الماء
فأتذكر سفن الشبق الرحالة بالعشيقين
العرايا
وظللت هكذا
مائة وسبعين عاما
آكل السمك النيَّ
وأتنشف بالماء القُراح
وأحلم بالأيام المغسولة
وألوّح للطيور الحوّامة الباحثة عن اليابسة
وأبكي ابنَ نوح وذاتَ الضفائر المجدولة
لماذا لم يصدقاني
حين ناديتهما
وصدقا الجبل والرجل الهارب؟

حتى كشف اللهُ الغمةَ
كنت أتتبع حواف الماء وهو يتسحَّبُ
عاما وراء عام
وقرنا بعد قرن
حتى لقيت نفسي
في حيطان معبد "أخناتون"
كانوا يجمعون عظام كل الآلهة
ويدقونها بالحديد
فتصير معجونةً
ثم يحرقونها في باحة المعبد الوسيع
ويجمعون رمادها
ويضعونه في قارورة واحدة
ويُجبرون الناس على استنشاق رمادها المحروق
سألتهم:

وأين إلهُ الماء
يا أبناءَ الماء؟
قالوا:
حرّقناه
سألتهم:
لقد هيأوني كأحلى عروسٍ
تُلقى في النيل
فمتى ستُلقونني يا رجال النيل؟
قالوا:
لم يعد للنيل شهوة للعذراوات
ولم يعد مشهد العروس المزفوفةِ
يشعل ذكورتنا
وحكموا عليّ باجترار الذكريات خمسين سنةً
وحدي

بين رسوم إله إخناتون الوحيد
لكنني
وأنا أجتر ذكرياتي
تذكرت امرأةً وحيدة
بلا ذكريات
كنت قابلتها وهي تُهَرِّب الحنين
لأشباه الرجال
وتبيع لهم الكلام الغامض
بدرهمين
وتمنحهم الأسماء المصقولة
مقابل دينار
فدلقت قارورة رماد الألهة كلهم تحت أرجل إله
إخناتون
وجريت

من بوباست حتى منف
ومن إهناسية حتى أفاريس
كنت أقابل النساء مشبوحاتٍ
على جفاف الشمس
فأغريهن بالهروب معي
بحثا عن الماء
وعشب الماء
ورجال الماء
لكنهن كن كأنهن مربوطات بحبال مشدودة
وكنت أرى الرجال مصلوبين كالتماثيل
فأكشف لهم نهديّ
وفخذيّ
وسرتي
وأعدهم بالقمر الفضيّ مبلولا

بحنين العشاق
لكنهم كانوا تماثيل بالفعل
حتى أن انعكاس بريق نهديّ
لم يجعل العصافير النقَّارة في أكتافهم
تفزع
فتطير
وظللت أجري
من معبد لحانة
ومن دارة بلا سقف
لحقل لا نهاية لثومه وبصله وعدسه
حتى قبضوا عليّ في زقاق ضيقٍ
أنا ورجل يجاهر بعبادة رع
متعانقين
بلا حنين

ولا قبلات
وسلمونا لكهنة التوحيد
فحكموا على ابن رع بالمشي مائتي سنة
في ظلمات حنينه لرع
وحكموا عليّ بالحبس ألف عام وعام
في صحراء لا ماء فيها
ولا شواطيء
واجترار ذكريات لم تحدث بعد
وكتفوني بالحبال المجدولة
وأودعوني هودج ناقة عمياء
وظلوا يضربونها بالحجارة
والعصي
والصراخ
حتى انطلقت تجري يمينا ويسارا

بلا حادٍ
ولاهدف
إلى أن نفقت في عماها
جائعة
صادية
وحيدة
وتدثرتُ بالخيام
كنت لما يقوم العطش في جسدي
يلوح لي ابيضاض الماء
في أعلى الجبل
فأصعد جارية إلى الصفا
علني أبل ريقي
فلا أجد غير السراب
فيلوح لي في المروة

فأهبط جارية
علني أبلل الشفاه
وليس ثم غير السراب
والسراب
والسراب
سعيت بين الجبلين
سبعا وسبعين مرة
وقذفت السراب بالحجرات
سبعا وسبعين مرة
ولما تعبت
جلست متقرفصة
وصوبت عينيّ في حفرة
بين حجرة ناشفة وحجرة مشمسةٍ
فضربت الحجرتين

وانطلقت الشرارات
وأُضرِمَتِ النارُ
نارٌ مبهرجةٌ
نارٌ حلالٌ
تعلو وتخفت
حوّمتُ فوقها بيديّ
وقرأت أسماء الرجال الذين قتلوني:
العابر ذي الفراشات
والمائل الذي لا يريم
والهارب وراء أشباحه
وذي الجلال
وابن القصّاب والقصّابةِ
والمنذور للرياح الدوّارةِ
فلم تهتز النارُ

ولم ترجف
وتلوت أسماء رجالي الذين قتلتهم:
الطواف ذي البروق
وقاطع أشجار الغابات
وخبّاط تمر النخل
والمطرود من ذكرياته
وذي الجلالةِ
وربيب الحطَّاب والحطّابةِ
والمعلق من سقف أحلامه
لم تهتز النارُ
ولم ترجف
فنهضتُ
ووضعتُ رجلي اليمنى
على الحجرة الناشفة

ووضعت رجلي اليسرى
على الحجرة المشمسة
فعلت النارُ الحلالُ
وبرقت
وضوّءتْ
وسرت حرارتها في باطن وركيّ
فصفقتُ بيديّ
وهززتهما
وضربت الحجرتين بأصابع رجليّ
ورقصت
فصلصلت خلاخيلي
وركزت على كعبيّ
ودرتُ حول نفسي
فبرقت حلقاني

ورنت الخواتم في الحُقِّ المقفول
تعطّشتُ حتى جففتُ
تلوَّيتُ حتى غفوتُ
وفي غفوتي تشوّفتُ
تشوّفتُ حتى انجلت الآلاءُ
رأيت كأنني مُمَدَّدةٌ على ظهري
والمطر يهطل على نعاس عُرْيِي
فتتجمع القطراتُ في سُرَّتي
كأنها كأسٌ بللورية
والعصافير تزقزق
هابطة من السماءِ السابعة
لتشرب من الكأس البللورية
وأسمع رفرفات أجنحتها
وأحس دغدغات مناقيرها الصغيرة

في سُرَّتِي
ولا أستطيع أن أشرب
أتمنى لو ان العصافير تلتقط القطرات
وتقطرها في فمي
فلا تفعل
ولما فتَّحْتُ عيوني
كان الماء يجري من الحفرة
دافقا
رقراقا
سلسبيلا
ماءٌ حلالٌ
مغتسلٌ باردٌ
وشرابٌ
كان يتسرّبُ من الجهات كلها

وينسل إلى الجهات كلها
وأنا أُحَوِّطُهُ بيديّ
وأقولُ له:
زم .. زم
وأنبطح على ركبتيّ ومرفقيّ
فيتدلّى نهداي
وتلامسُ الحلمتان حنان الماء
وأعبُّ الماءَ بفمي
زم .. زم
أرشُّ جسدي كله
زم .. زم
وأبلل شَعري
زم .. زم
أسقي رجالي الذين قتلوني

وأسقي رجالي الذين قتلتهم
زم .. زم
فيزم ويزمزم
ويأتي رجالٌ كثيرون عطشانون
على نوقٍ كثيرةٍ عطشانةٍ
فأعطيهم قربة الماء
ويعطونني أسماءهم العربية العاربة
وأسماءهم العربية المستعربة
ويسقون الغنم والنساء
ويبنون خيامهم
يضعون فيها نساءهم
ويطلقون أغنامهم على الحواف
ويتطلعون للنجوم
ويتَنَظَّرُون

ولما يأتيهم النبأ من السماء
يُعِيدون لي قربة الماء
ويستردون أسماءهمُ العربية العاربة
وأسماءهم العربية المستعربة
ويعيدونني
لخيمتي
ويكتفونني
ويذكرونني بحكم أبناء "أخناتون"
باجترار ذكريات لم تحدث بعد
فأتدثّرُ بالخيام ثانيةً
لكنني وأنا أجتر ذكرياتي التي ستحدث لي
في المستقبل
تذكرت رجلا وحيدا
له شاربٌ

وأنف معقوفٌ
وذكريات خربة
كان يبيع الفرح للبحراويين
ويأخذ منهم حكاية عن نساء البحر
يمنحهم زيت النسيان
ويأخذ منهم نصف أحلامهم
فظللت أدلق زيت النسيان على جسدي
وأدلك أطرافي
فازدادت ذاكرتي ازدحاما
حتى زعق زاعقٌ في جوف البيد:
مات الخليفة العادل
فقمت وقطَّعتُ خيمتي
وربطت ضفيرتيّ ببعضهما
وارتديت أزياء البدويات

وكنت لما أمشي في شوارع الليل
بعد أن يخلد الخليون لنومهم
يظنونني خارجةً
لصلاةِ الفجر
فيشيرون عليَّ
ويقولون:
ما لِعائشة بنت طلحة
تعرف حقَّ العشاق
فتمنحه لهم كاملا
وتردف الأزواج؟
وتعرف حقَّ الله
فتمنحه له كاملا
وتدخلُ الجنة؟
كانوا يتسترون بليلٍ

ويضربونني على عجيزتي
فيدوي صدى ضرباتهم في أرجاء مكة
والطائف
وبني ساعدة
فأترك المدينة المنورةَ كلها
تلك التي ليس فيها بحرٌ
تنادي قطراتُه جسدي
متسلَّلةً في زِيِّ تاجرٍ للعطور
وأنضمُّ لقافلةِ بغداد
حتى أصلَ لشواطيء دجلةَ
فأكسِّرُ قواريرَ العطر
وأنثره على صفحته
فيبصرني عسسُ أبي الأمين والمأمون
ويسوقونني إليه

في قصره الوسيع
أسترقُ السمع لرنَّةِ العيدان
فأتلصَّصُ للمقتولين في الألحان
وللغاوين في القصيدة
وللضائعين في حنجرة إسحاق الموصلي
وألمح الدموعَ في نظراتِ حاملِ الختم
وناديم الخليفة
ذي العباءة البرمكية البراقة
فأرق له
وأمد أصابعي من تحت الستار المزركش
وأقرص فخذه
فتزداد دموعه
ويمد أصابعه
ويقرص سرتي فتنتفض حلمتاي

وعندما أرجعُ من دار جعفر
بعد أن رشَّ عليَّ العطور والعشقَ
والتمرَ يبرقُ أحمرَ
ينهضُ البصَّاصون ليخبروا الرشيدَ
أن العباسة بنت المهديّ
كانت راجعةً تتخفّى بالليلِ
وتتزيا بالهوى
وتتغنى بالنشيد
فيزأر هارونُ ليفتكَ بالبرامكةِ عن بكرةِ أبيهم
ويظلُّ يلاحقني
ويتوعدني بسيف مسرور
فأهربُ مع زرياب الأسود إلى المغربِ العربيّ
ومنه إلى الأندلسِ
كان طوال الطريق يدندنُ بأغانٍ

تعلمها من إسحاق الموصلي
يشتمه بها
وأنا كنت طوال الطريق أسأله:
هل يا زريابُ
سنجدُ الماء في دولة الأمويين الوليدة؟
فمد يده
وسحبني وهو يغني
وكانت الأطيار تحوم حول صوته النحيل
فعرفت أن حنجرته موصولة بنبع بعيد الغور
وتركني
وجرى
وجرت خلفه الأطيار
لأرى ابن زيدون على نهر سَنْجَل
خارجا لتوّه من محبسه

وحواليه عيون الخليفة
فألوّح له وأنا على حافة نهر تاجوسَ
فيهربُ من العسس الباصّين
ليتبعني
ويهتف ورائي:
يا بنت المستكفي

(إني ذكرتك بالزهراء مشتاقا
والأفق طلقٌ
ووجه الأرض قد راقا
وللنسيم اعتلال في أصائله
كأنما رق لي
فاعتل اشفاقا
فالآن أحمد ماكنا لعهدكمُ

سلوتمُ
وبقينا نحن عشاقا.)

ويطربني شعره
فأفرد له طرف جلبابي الأيمن
وأفرد له طرف جلبابي الأيسر
وأشير على الحروف المذهبة
وأقول له:
اقرأ يا وزير البلاط ما كتبته
فيقرأ:
(أنا والله أصلح للمعالي
وامشي مشيتي
وأتيه تيها
أُمَكِّنُ عاشقي من صحن خدي

وأعطي قبلتي

من يشتهيها.)

فيرتجُّ

ويربو

حتى يغطي عرقُه جسمَه

فأتركه

هاربةً لنهر النيل

تغيرت طرقات مصر

وقامت بناياتها

وأصبح لنساء الليل فيها نَسَبٌ

ودُورٌ

ومواعيد

فأسمع لحكاياتهن الجريحة

كلها حكايات بلا ماء

ولا قوارب
ولا قش مفروش يصلح للغنج
فأتركهن
وأرقص عارية بصليل خلاخيلي
وبريق حلقاني
ورنين الخواتم في الحق المقفول
أمشي راقصةً
من الصالحية حتى قلعة الرماية
ومن باب زويلة حتى مجرى العيون
كان الماء يقطر من كيعاني
فيخرج الرجال من كل شارع
يضعون أقدامهم في موضع أقدامي البليلة
ويشقون جلابيبهم
ويقولون:

يا لَلْبَلَلِ المدلوق
لكن النخاسين رمقوني
فباعوني لرجال السلطان
وحملوني إليه كما أنا
عارية
وبليلة
ووضعوني بين ستائر
وسرر
وقوارير
فتمددت
وحككت جسمي بأظافر أصابعي
أُسَقِّطُ عنه عيون الرجال
وأزيل الحكايات القديمة
فيقع علىّ السلطان

وأتثنى
وأتأوه
ويمد أصابعه لتعبث في نهديّ
فأمتنع عليه:
إلا إن حرّرتَني
يا نجمَ الدين
فأصير سلطانة مصر
وأأسر لويس التاسع
في دار إبراهيم بن لقمان
وأخرج على الناس
فيهتفون
رافعين أكاليل النصر والسيوف البراقة
كان رجال القلعة
وأمراء المماليك

وقادة الجند اليمينيون
وقادة الجند الشماليون
كلهم يحدقون في بريق حلقاني
وكان البندقداريون
والقلاويون
والغوريون
كلهم يتمايلون على صليل خلاخيلي
وكان السقاءون
والمكاريون
والسحّابون
والخصيان
كلهم يخلعون خواتمهم
ويلقونها على الحُقِّ المغلوقِ
حين يرنُّ

لعنة الله عليهم جميعا
لم يعرفوا أبدا
أن الماء قصدي
وليست
أصابعهم الجائعة.

٢
أنا امرأةٌ ورقية

أنا امرأةٌ ورقية
إن سقيتَني
تفتَّحتْ يرقاتُ أشجاري
وإن ضممتَني بشوقِ الصعيديّين
تكسَّرَتْ أضلاعي
فإن قرأتَ عليَّ أشعارك
لا تنسَ وصية الرسول لحادي البيد في حجة الوداع:
(رفقا بالقوارير
يا أنجشة).

٣

أنا امرأة شيعية

أنا امرأة شيعية
رجلي قتله جنود يزيدَ
وأخوتي أسرهم الغزاةُ الحداثيُّون
فتيَمَّمْ بوردتي
وتعطَّرْ بمائي
وغرِّقْ مسامَّ جلدي
فالشيعية لا ترث من رجلها عقارا
أو أرضا
لكنها ترثُ الماء.

٤
أنا امرأة رقَّاصةٌ

أنا امرأة رقَّاصةٌ
لما يدق الداقُّون
ينهض جسمي
وحده
ويتركني
وحدي
ليقلِّدُ الدقات
تعلو الدقةُ
فيعلو في الهواء رجالُ أحلامي

ويدورون مع دوران نهديّ
في الفضاء الوسيع
وتخفت الدقة
فيسري الخدر في أوصال كاتبي التاريخ
فيدوّنون قطرات العرق الهاطل من شَعري
وسُرَّتي
وركبتيّ
يعدون الرجال الذين نحلت أجسادهم
وهم يتابعون طيران شَعري
حين يلامس حلمتيّ
فيكتبون:
أصابتهم رجفةٌ
ويعدون الرجال الذين صعدوا في الهواء
ولم يهبطوا

وهم يتلقَّطون بللي
فيكتبون:
أخذتهم صيحةٌ
وأظل أدق
حتى يشتجر عشرون بحرا كاملا
في دقات أصابع قدميْ.

٥
أنا امرأة بَلِيلَةٌ

أنا امرأة بَلِيلَةٌ
بَلِيلَةٌ
بَلِيلَةٌ
بَلِيلَةْ.

٦

أنا امرأةٌ محفوفةٌ بدماء الأشوريين

أنا امرأةٌ محفوفةٌ بدماء الأشوريين
فلا تصدق كلامي الواضح
وصدق كلامي الغامض
وإن حمل كلامي معنيين
أحدهما بين أصابعك
والآخر لا تبصره عيناك
فابحث أيها اللغوي المتمرسُ
عن معنى ثالث
أنا أعنيه

وأنت تعرفه
فأنا امرأةٌ
محفوفةٌ بدماء الأشوريين.

٧

الفراتية لقبي

الفراتية لقبي
فقد ولدتني أمي على ضفاف الفرات
حين كانت عائدة
من سفرة بكاء
كانت وحيدة
بلا رجلٍ
وغريبة
بلا بيتٍ
ونحيلة

بجلباب وحيد
وحين ضربتها موجةٌ قادمةٌ من بلدة طفولتها
البعيدة
ولدتني
فقط
تشبَّثت بحواف صخرة ناتئة
وأمعنت في تذكر قسمات رجالها الجوف
وحين استطاعت تجميع تقطيبة أحدهم
قلدت صرخته الناشفة
وزعقت
حتى أن حلقات ماء الفرات
ارتجفت
وولدتني
وقبل أن تجرني الدوامات الملفوفةُ

التقطتني
وعمّدتني
ونشّفتني
ومنحتني اسم:
"السارية"
ووشوشت في أذني بكلام
ظللت أحفظه إلى الآن
أردده بين حافة الليل وحافة الليل
ولا أعرف معناه
وعندما حبوت بين الرمال المبللة
والصخور المخضرة
وبدأت أضرب بكفة يدي سطح الماء
كانت أمي قد استجمعت ابتسامة رجل آخر
غير صاحب التقطيبة ذي الصرخة الناشفة

رجل له أسنان ناتئة
وعيون قديمة
فعمّدتني ثانية
ونشفتني
ومنحتني اسم:
"راغدة"
ووشوشت في أذني بكلام آخر
ظللت أحفظه إلى الآن
أردده بين حافة النهار وحافة النهار
ولا أعرف معناه
وهكذا
ظلت تعمدني
وتنشفي
وتغير أسمائي

بتغير تذكراتها وعذاباتها
وتبدل الكلمات الموشوشة
الكلمات التي تتوالد في ذاكرتي
بلا معنى
ولكنها حنون
ونذرتني للفرات
كانت كلما قرصني الجوعُ وأنا طفلة
تذهب بي إلي الفرات
لتقايض الصيادين
تأخذ أسماكهم الطازجة
وتعطيهم نصف ضحكة
ونصف موعد
ونصف حنين
وعندما تدوَّر التفاح في أعطافي

وقرصني الحب
كانت تضعني في قارب
بالكاد يسع اثنين
وتستأجر لي أحد الغرباء
تمدده بجواري في متن القارب
وتقرأ علينا بعض التعاويذ
وترشنا بالعسل
والبخور
والصندل
وتقول لله:
يا الله
هذه أمتك الصغيرةُ
مهيأة تماما لكل قطرات الفرات
فكن معها

هي وهذا الغريب الذي لا بيت له
ولا ناس
وابعد عنهما أبالسة الماء المنقرين
في خرائب الترائب
وقرّب منهما رائحة الثمرة المحرمة
المهيجة للصُّلب
وارع الأسماك الجوّابة حولهما
لكي ترعاهما
هما لك
وللفرات
هما لك
وللفرات
ثم تجر القارب برفق
وتدفعه برفق

وتهمس له بكلمات صغيرة برفق
حتى يحمله التيار
ويسير به
وبين الموجة والموجة كنت ألمحها
وأنا في شهقة المناورة
وهي تلوّح لي
وكنت أسمعها وهي تردد:
ستعودين يا عيّاشةُ
عندما ينشف العسل
من جسد الرجل الغريب
ويبطل مفعول البخور
وتذهب رائحة الصندل
ستعودين يا عيّاشةُ
حين تنبت في أطرافك

زهورُ الشهور كلها
وحين ترفرف حول رأسك
طيورُ الشهور كلها
وحين تهطل فوق جسمك العريان
غيمات الشهور كلها
ستعودين يا عيّاشة
حين يملأ بطنك
وناهديك
وأصابع قدميك
سر الفرات.

٨

الخوّافة من القطارات صفتي

الخوّافة من القطارات صفتي
لأنني ربيبة الماء
فأنا مبلولة دائما
وراكبو القطارات
لا يستطيعون الاحتفاظ بالبلل طويلا
ينشفهم هواء القضبان
وتحمصهم الشمسةُ المحروقةُ
كل أصحابي البليلين الذين قاسموني
القوارب الرحالة

عندما ركبوا القطارات
جفت عروقهم
ويبست أحلامهم
ولم تعد عيونهم تلمع
كنت أنفخ في مسامهم
وألحس آباطهم
وأمشط حوائط المدن الجيرية
من أحداقهم
وأرشهم بالعسل والبخور والصندل
بلا جدوى
صاروا كالموتي
وصرت أتطير من زعيق المحطات
كل قطار يمر عليّ
يختطف أحد رجالي

ويقتطع حفنة من شَعري
ويُصحِّر قطعةً من البحر
كنت أزعق وراءه
كلما مر على بللي:
يا قطارُ
اذهب إلى الشمس
اذهب إلى جبال وحيدةٍ
اذهب إلى خشب الغابات
وخذ معك الغبار كله
والمواعيد الكاذبة
وأسلاك الكهرباء
ودع لي ضفائري
ورجالي
وحنان بحري

كنت أقذفه بالحجارة
والعصي
والرمال
وأُشَيِّعُه باللعنات
لكنه كان يعود دائما
ويمر كل ستة أسابيع
وأربعة أيام
كان يمر عندما تعلو ثلاثُ ظلماتٍ
طباقا
وتختفي نجمة
"خائنة الليل"
وتظهر نجمة
"معانقة الرحَّالين"
يقبل من آخر الدنيا

حاملا معه حُجُرات الشقق المعلقة
ومآذن المساجد بأنوارها كلها
وعشرين رصيفا جانبيا
وساحبا خلفه
غبار ألف يوم من الصحارى
يترك الشمس
والجبال
والغابات
ويعرّج على البحر
فتطير طيوره الوديعةُ
وتختفي حكاياه الخرافيةُ
في جوف القواقع المضمومة
ويهرب رجال أحلامي
قابضين على خصلات شعري

ليتذكروا بلل حيواناتهم الصغيرة
وينسوا رائحة البحر
وأنا
أفرد شعري على سطح الماء
وأدرب ناهديّ
على الطفو
ثم أعود إلى الشاطيء
أقيد نارا
في حفرة صغيرة
أدفن فيها دموع رجلين كاملين
نارا حلالا
تصلح لحرق الذكريات كلها
ثم أرش عليها ماءً
ماءً حلالا

يصلح لاستجلاب ألف حكايةٍ
من القوارب المضمومة
وأنام
وحيدة
خائفة
من القطارات.

٩

كنيتي ذات الخلاخيل والحلقان

كنيتي:
"ذات الخلاخيل والحلقان"
وأملك حُقا به خواتم
بعدد رجالي
الخلاخيل
تضبط إيقاع خطوتي
حين أرقص عارية
والحلقان
تُطيّرني لأعلى على دقة الإيقاع

قالت لي أمي:
المرأة بلا خلاخيل
لا تُمتع رجال البحر
والحلقان تحرس الشهوة الدخانية
مررت على نخلة ذات أسباط
وكلمتها عن أسراب الطيور المحلقة
فكللتني بالسعف الأخضر
وباركت دموعي
ومنحتني حَيَّةً رفيعةً
بلا سُمٍّ
ولفتها حول معصمي
كانت عيناها تبرقان
حين أتذكر رجل الصندوق البنيَّ
فتُخرج لسانها

وتلحس أطراف أصابعي
فيسري الخدر في وركيّ
وأقول لرجل الصندوق البنيّ:
أيها الرجل الوحيد
يا ذا العرق الهاطلِ
أنت اقترضت روحي مرتين
وشققت طريقا ضيقة إلى البحر
وركبتَه
ولم تعد
وأنا
مازلت أسير في الطريق الضيقةِ إلى البحر
بصليل خلاخيلي
وبريق حلقاني
ورنين الخواتم في الحق المقفول

أقف على الصخرة المخضرة
ألوّح لقُوَّاد السفن المسافرة
وقراصنة البحر الجوابين
أسألهم عن رجل الصندوق البنيّ
فيقولون:
كان يمشي على الماء
ويقولون:
كان يتبع غيمة
تسير بلا هدف
ويقولون:
أصبح بلا ضريح
ولا سور
لكنني
أنا

والنخلة ذات الأسباط
والحية الرفيعة
نجتمع كل ليلة
لنرعى غياب رجل الصندوق البنيّ
ونشعل الحفرة بالنار الحلال
ونطفئها
بالماء الحلال.

١٠

اسمي عيّاشة وراغدة وبشرى والسارية

اسمي عيّاشة
وراغدة
وبشرى
والسارية
أمي كانت تمنحني اسما
عند كل بحر
وكانت أسمائي صغيرة
لم أكن أملك نقودا
لأشتري اسما يليق بحالي

كنت أدق على باب الرجال الغرباء
أعطيهم فضة سرتي
وبوح كائنات البحر الذبيحة
ويواقيت الأنجم السيارة
وأطلب منهم اسما
له رنين
لكنهم كانوا مثلي
فقيرين
وبلا أسماء
مرةً
أخذتني أمي إلى حامل أختام الدولة
قالت له:
إن منحتها اسما عاليا
سأعطيك عشر حَجَرات

وعشرة بحور
وعشرة ظلال
لكنه طلب منها بحرا واحدا
شريطة أن يكون ماؤه ذا سرٍّ
وذا حلاوة
كان رجلا طماعا
يريد أن يقبض على سر الماء
وحده
فأخذتني أمي لحامل خفَّيْ الملك
قالت له:
امنحها اسما مُزَوَّقا
وسأعطيك حفنة من الحنين
فلا تظمأ روحك أبدا
لكنه طلب منها شربة ماء واحدة

تجعله لا يموت
فنثرنا على وجهه الغبار
ومضينا
جمعنا كل حاجياتنا:
شباك الصيد
وصندوق الذكريات
وأصداء الراحلين
وروائح البحر
وجلسنا على قارعة الطرقات
قلنا:
من يشتري حاجياتنا
ويمنحنا اسما
يسهل على العصافير زقزقته
وعلى الحطابين ترنيمه

وعلى راكبي البحر
تذوق عسيلته؟
كانوا يقلِّبون حاجياتنا
ويعبثون في سنوات رجالنا المقتولين
ويبعثرون مواعيدنا المضروبة
من ألف سنة
ويقولون:
ليست بذات ثمن
ولا تصلح حتى لتعليقها على حوائط بيوتنا
ارضي بقسمتك
واحتفظي بأسمائك الصغيرة
ماتت أمي
وتغربت في مائة بحر وبحر
ومازلت إلى اليوم

أحلم بامتلاك قبضة من الذهب
وقبضتين من الفضة
لأشتري اسما طوّافا
على قد حنيني لرجالي الرُّحَّلِ
ومازلت لا أملك إلا أسمائي الصغيرة:
عيّاشة
وراغدة
وبشرى
والسارية.

١١

فلا تتبعني يا صاحبَ الأناشيد
حتى لا تتعبَ روحي

فلا تتبعني يا صاحبَ الأناشيد
حتى لا تتعبَ روحي
لأنك إن اتَّبعتني
حامت حولي الفراشاتُ
ولفني قوس قزح
وأنا روحي ليست خالصةً
كل الذين قتلوني
ماتوا فاتحين عيونهم على ممالكي

وحالمين بورقي
وكل الذين قتلتهم
ماتوا
وبقيتُ فاتحةً عيوني على رجل لم يقتلني
ولم أقتله
فنقّرْ في خشبِ الوقتِ
واجلسْ كعادتك
وحيدا على حافةِ نهر النيل
وطارد قصيدةً طريةً
وفي ضحويات الأربعاءات الحنون
صوبْ عينيك في اتجاه تفعيلة المتدارك
أو الرجز
واستجمع النساء اللواتي هبطن
على درج البحر

وحيدات
بلا مشدات
ولا غبار
صُفَّهن في صفين متقابلين
ومر بينهما
كما يليق بوريث الآبقين
منذ قابيل
وابن نوح
وحتى آكلي النار الجديدين
وراسمي الوشم
مُرَّ بين الصفين
لا تلتفت لأياديهن الجوعانة
ولكن عاين ذواكرهن
ولا تحتطبهن

وإنْ وجدتَ امرأةً
طالعة من مياه النهر
عاريةً
إلا من الحنين
شفيفةً
إلا من الذكرى
وحيدةً
إلا من النهر
فاعلم
أنها أنا.

الجزء الثاني:

الأناشيد

أولا : اَلتَّصَاوِيرْ

كانت امرأةُ البحر
تزهو على قاتليها
برائحة البحرْ.
.....
كان واحدهم عندما ينتوي قتلها
يتلصص
خلف بدايات مسِّ المياهِ لصخر الشواطيء
ثم يفاجئها
وهي مغمضةٌ حلمها
ومُفَتّحةٌ جرحها

فيرش على ناهديها كلاما
له شبهٌ بالرمال الرواحلِ من قريةٍ
تتباعد
حتى إذا سألته عن التمر
يبرق أحمرَ في وهج
الشمسِ
يُخرج من جيبه نارةً تشبه الشمسَ
ثم يحرّقُ أظفارَ أقدامها
ثم يعلو
وركبتها
ثم يعلو
وسرتها – وهي مملوءةٌ بالمياه –
ويعلو
وأسنانها

– قبل أن تتزوقَ شيئا له نكهة التمرِ يبرقُ أحمرَ
في وهجِ الشمسِ–
ثم يمدّدها فوق سطح المياه
محرّقةً كلها
ومعبّأةً بكلامٍ
له شبه بالرمالِ الرواحلِ من قريةٍ تتباعدُ
يتركها
ويعوم لصخرِ الشواطيءِ
حتى إذا ما مشى
أو تكلم
أو قابل امرأة تتسوّقُ
أو رجلا راكبا شجرا
فاجأتْه
وهِيْ تتزيا برائحة البحر

تعبرُ قدامه
يتقطّرُ من ناهديها
وسرتها
وضفائرها
ورقُ البحر.

ثانيا : لَيْلَةُ الظَّمَأْ

روحي تُحوِّم
مثل من سرقا
تحنو وترجفُ في فضاءات ملونة
كي تصطفي الأرقا
ترتابُ في ماءِ الفراتِ
تزوقُه باللمسِ
أو تأكله بالهمس
حتى ترتوي حرَقَا
وتعومُ حتى ماءِ نهرِ النيلِ
ظامئةً

لمن يسبحُ فيه غرَقَا

تهمسُ:

يا صيَّادُ جسمي في هواه

ناشفٌ

بلِّل حشاه

فإنه احترقا

مرِّرْ عليه أصابعَ الشوقِ الصعيديِّ الحنونِ

تجده قد برَقَا

وانفضْ عن النهدين رملا

ناعما

بيديك أو عينيك

حتى يلمعا

كلِّمهما عن عاشقٍ مرَقَا

بهواه منتشيا

يشدُّ أصابعَ الشيعيةِ الحيرى
وقد خرَقَا
صمتَ الأراضينِ محتطبا بفأس الشوق حتى مسَّ في
دِعةٍ
روحًا تحوّمُ
تصطفي الأرقا.

خَاتِمَةُ الْقَولْ

سوف يحمر وجهك أكثر
حين أصدقه
إن عينيك لا تكذبان
فكيف أخادع غيما على مائه
وهو يمطر ؟

عبد الرزاق عبد الواحد

مؤلفات السمّاح عبد الله

أولا : دواوين شعرية

٠١ - شتاءة للعاشق الوحيد

٠٢ - سقيفة الفقراء

٠٣ - حصيرة البارحة

٠٤ - خديجة بنت الضحى الوسيع

٠٥ - مكابدات سيد المتعبين

٠٦ - الواحدون

٠٧ - أحوال الحاكي

٠٨ - مديح العالية

٠٩ - خلاخيل العابرة

١٠ - الرجل بالغليون فى مشهده الأخير

١١ - ثلاثاءات عابر سبيل
١٢ – متى يأتي الجيش العربي ؟!
١٣ – قبو الثلاثين
١٤ – تصاوير ليلة الظمأ
١٥ – طرف من أخبار الحاكي
١٦ - نثر الدر

ثانيا : المسرح الشعري
أغنية إلى النهار

ثالثا : المختارات الشعرية
عن الأشياء نفسها

رابعا: مختارات من الشعر العربي
١ - مختارات من شعر محمود سامي البارودي

٢ - مختارات من شعر أمل دنقل
٣ – مراثي الإمام محمد عبده

خامسا: إعداد وتقديم
١ – ديوان ولي الدين يكن
٢ – ديوان إسماعيل صبري

سادسا : شعر الأطفال
١ - شجرة الأسبوع
٢ – خير الأمور الوسط
٣ – الأغاني الصغيرة
٤ - أغنية الشجرة
٥ – بستان الشهور
٦ – قط في المرآة

سابعا: فصول من السيرة الذاتية
الرحل ذو الجلباب الأزرق الباهت

ثامنا: كتب مجمعة:
عطلة الشجرات، مجلد يضم ثمانية دواوين، هي: نثر الدر، طرف من أخبار الحاكي، تصاوير ليلة الظمأ، قبو الثلاثين، متى يأتي الجيش العربي؟، ثلاثاءات عابر سبيل، الرجل بالغليون في مشهده الأخير، خلاخيل العابرة.

تاسعا : كتب عن الشاعر
١ - وجوه بين صوابعي مقاربة شعرية لديوان الواحدون أسرار الجراح دار التلاقي للكتاب ٢٠١٠
٢ – الزمن ودلالاته في شعر السماح عبد الله دراسة نقدية د. جمال الجزيري دار كتابات جديدة للنشر ٢٠١٥

٣ – قراءة الثورة بأثر رجعي دراسة في قصائد خديجة للشاعر السمّاح عبد الله د. جمال الجزيري دار كتابات جديدة للنشر ٢٠١٥

٤ – تجليات الزمن في ديوان "مديح العالية" للشاعر السمّاح عبد الله د. جمال الجزيري دار كتابات جديدة للنشر ٢٠١٥

عاشرا: بيانات:

مدير بيت الشعر المصري، مركز إبداع الست وسيلة.

هاتف شخصي: ٠١٠٠٧٥٥٨١١٧.

بريد إلكتروني: alsammah63@yahoo.com

المحتوى

إشارة ٠٠٦

إهداءة ٠٠٧

بدء القول ٠٠٩

الجزء الأول:

أَقْوَالُ الْمَرْأَةِ الْبَلِيلَةِ وَتَفَاسِيرُ أَقْوَالِهَا ٠١١

أولا : اَلأَقْوَالْ ٠١٣

ثَانِيًا : تَفَاسِيرُ اَلأَقْوَالْ ٠١٥

١ – أنا امرأةٌ قديمةٌ ٠١٧

٢ – أنا امرأةٌ ورقية ٠٥١

٣ – أنا امرأة شيعية ٠٥٣

٤ – أنا امرأة رقَّاصةٌ ٥٥.
٥ – أنا امرأة بَلِيلَةٌ ٥٩.
٦ – أنا امرأةٌ محفوفةٌ بدماء الأشوريين ٦١.
٧ – الفراتية لقبي ٦٣.
٨ – الخوّافة من القطارات صفتي ٧٣.
٩ – كنيتي ذات الخلاخيل والحلقان ٨١.
١٠ – اسمي عيّاشة وراغدة وبشرى والسارية ٨٧.
١١ – فلا تتبعني يا صاحبَ الأناشيد
حتى لا تتعبَ روحي ٩٣.
الجزء الثاني:
الأناشيد ٩٧.
أولا : اَلتَّصَاوِيرْ ٩٩.
ثانيا : لَيْلَةُ الظَّمَأْ ١٠٣

خاتمة القول ١٠٧
مؤلفات السمّاح عبد الله ١٠٩